يربطها بالكاظمية جسر يصر الناس على تسميته بجسر المحبة

الاعظمية.. جوهرة الرصافة التي سُرقت دجلتها

صافي الياسري

هي هدب عين الساحل الشرقي لدجلة، والشبوي المخضل بروح الرازقي البغدادي على امتداد الشط من قصر شاكر الوادي ورقة الرشيد (الكريعات) شمالاً حتى جنوبي البلاط الملكي، تلك هي اعظمية بغداد وليدة الامام الأعظم النعمان بن ثابت (أبي حنيفة).

عسكر المهدي

يوم كنا صبية وقبل ان يسرق شواطئنا ومدننا وملاذاتنا طاغية العراق، كنا نلتقي صيفاً، شباب الكاظمية والاعظمية في جزرة دجلة التي كانت تطلع لنا بمجرد ان ننهي امتحاناتنا الموسمية، فنلهو فريقا كرة قدم أو كرة طائرة جائزتنا بعد اللعب ذلك الرقي المبرّد على ساحل الجزرة.

ولم نكن يومها نفهم معنى كلمة (طائفة) فلم يكن ثمة من يتداولها.

والرصافة وبعضها الأعظمية، هي . عسكري المهدي . بنيت اثر شغب الرواندية على ابي جعفر المنصور حين حاربوه على باب الذهب، وقد بنيت وفقاً لمشورة قثم بن العباس بن عبد الله بن العباس حين قال للمنصور:

(ابن للمهدي قصراً في الجانب الايسر من دجلة قبالة مدينتك فيصير ذلك بلداً وهذا بلداً، فان فسد عليك اهل هذا الجانب ضربتهم باهل الجانب الآخر، وان فسدت عليك مضر ضربتها باليمن وربيعة والخراسانية). وسرعان ما عمرت الرصافة وامتدت اركانها إلى موقع الاعظمية التي اختص السكن فيها بالاجراء والرؤساء والتجار والموسورين الذين بنوا فيها القصور وزخرفوها، وازدهرت فيها الأسواق والحمامات.

ومنها سوق يحيى الذي يشير المقدسي إلى انه كان قرب مشهد ابي حنيفة . المقدسي . احسن التقاسيم (١٣٠) والى ذلك يشير ابن الجوزي أيضاً في المنتظم (ج٦ ص١٤٦) وابن الحق في اخبار بغداد ص١٤٢، ويذكر اليعقوبي في (فتوح البلدان، ص ٢٥٣. ٢٥٤) ان هذه السوق أخذت اسمها من يحيى بن الوليد من حاشية الرشيد، بينما ينسبها كل من الخطيب البغدادي وياقوت إلى يحيى بن خالد البرمكي الذي كان الرشيد قد منحه اقطاعاً واسعاً في منطقة الاعظمية وقد صار ذلك الاقطاع بعد نكبة البراكمة إلى أم جعفر، ثم اقطعه المأمون بعد مقتل الأمين إلى قائده ظاهر بن الحسين.

ويقول ابن الجوزي ان دكاكين سوق يحيى كانت عالية على طراز دكاكين باب الطاق وفيها دقاقون وجنازون وحلويون وهي سوق تقع بين مساكن الوزراء والأمراء والرؤساء والموسورين.

وعلى امتداد الطريق الصاعد شمالاً من سوق يحيى (محلة وسوق النصة حالياً) يقع سوق خالد البرمكي وعلى مقربة منه سويقة جعفر كما يذكر ابن الفقيه الهمداني في كتابه (بغداد، ص٥٧) وياقوت في البلدان (ج٥ ص١٨٢٩، والى الشرق من الاعظمية تقع الشماسية وسوقها القديم وما زالت حتى اليوم تعرف بهذا الاسم، وفيها نادي الاعظمية الرياضي وساحة عنتر.

حديقة العشاق

ويوم كنا تلامذة في جامعة بغداد/ اوائل السبعينيات، كان شاطئ الاعظمية ملاذنا الحبيب للاستراحة والدراسة ولقاء الاحبة، فحديقة العشاق وجنينة الروز كانتا (دار المواعيد) وجدران كازينو الخورنق وصفصاف الشاطئ غصناً وجذعاً هي اوراق كتاباتنا العاشقة وذكرياتنا، فمن مناديل الماء المبسوطة رقراقاً على رمال الساحل حتى ظلة السدر والصفصاف والنخيل ومزاغل الياس والروز كنا نخبئ صويحباتنا وكتبنا ومعاطفنا، وكم بكينا يوم سرق الطاغية شط جنينة الروز وحديقة العشاق وهدم كازينو الخورنق ليبني قصره المشؤوم.

اختفى الصفصاف والسدر والتوت، ومزارع (الكرادة) على الساحل الذي كانوا يستثمرونه لزراعة القثاء واللوبياء والرقي والبطيخ والباميا، اختفت الخضرة المحببة لتبرز جدران القصر ومن خلفها وجوه العسكر المقيتة.

وحولت امانة العاصمة بقية الساحل إلى مطاعم وكازينوهات وجدت فيها العوائل البغدادية ملاذاً آمناً، لكنها تدفع لقاء جلسة حالمة وعشاء، مبلغاً لا يستهان به، في الوقت الذي كانت فيه العوائل تفترش حدائق الشط مجاناً حاملة معها طعامها وشرابها. وقد انتقلت إلى مطاعم هذا الشط سلطانية الاكلة البغدادية المعروفة (السمك المسكوف).

وتمضي من (قصر السلطان) الذي يستوطنه اليوم عسكر العم سام وتحيط به الدبابات والاسلاك الشائكة ولافتات التحذير خطر الموت.. تمضي شمالاً وقبيل الجسر إلى اليمين مع انحراف الشاطئ تدخل محلة السفينة احدى اقدم محلات الاعظمية، وفيها تقع المقبرة الملكية التي تضم رفات ملوك العراق الثلاثة فيصل الأول وغازي وفيصل الثاني، وآخرين من العائلة المالكة.

المشهد المقدس

ثم تتجه إلى معلم الاعظمية الأول مشهد الامام ابي حنيفة النعمان بن ثابت (رض).

— كيف سرقت جنينة الروز وحديقة العشاق؟

— دار العلم والرياضة وحاكي المقام العراقي

والى جنوبه مبنى كلية الدراسات الإسلامية (اهل البيت سابقاً) ومكتبتها الشهيرة التي أثار استيلاء وزير الاوقاف أيام الملك فيصل الأول، الشيخ احمد الداود بدء تأسيسها، استياء اهل الاعظمية وخروجهم في تظاهرات حاشدة مما دفع عدداً من نواب البرلمان حينذاك إلى مساءلة الشيخ احمد الداود الذي انتصر له الملك فيصل الأول لانجاح مشروع تأسيس مكتبة الاوقاف.

وخلف هذه الكلية تقع مقبرة الخيزران، وهي أم الخليفة العباسي هارون الرشيد، وقد اوقفتها للموتى من غير القرشيين، فمقبرة قريش كما هو معلوم، تقع في منطقة الكاظمية، وفي مقبرة الخيزران يمكننا قراءة شواهد عدد من القبور تضم مشاهير من القادة العسكريين والحكام والشعراء والادباء والوجهاء، منهم مثلاً جميل صدقي الزهاوي وعدد من مهراجات الهند وباكستان، وشيخ الطريقة الرفاعية أبو بكر الشبلي وسواهم.

اما ضريح وجامع الصوفي المعروف ببشر الحافي فيقع خلف مشهد ابي حنيفة قريباً من الشط والجامعة الملحقة بجامع الامام ابي حنيفة، في حقيقتها كلية عامة يدرس فيها الطلبة أصول الفقه والتفسير والمذاهب الإسلامية واللغة العربية وبعض الانكليزية وما يلزم ليتخرج الطالب امام جماعة، ويدرس فيها أساتذة متخصصون ولها شهرة واسعة في عموم البلدان الإسلامية التي توفد ابناءها للدراسة في هذه الكلية التي كانت الحكومة العراقية تتكفل بمصاريف الدراسة فيها، ويتقاضى طلابها راتباً شهرياً من الحكومة لمصاريفهم الخاصة، كما تتولى الحكومة أيضاً الانفاق على سكناهم وطعامهم.

وتحوي مكتبة المشهد، نفائس المخطوطات في التفسير والحديث والفقه واللغة العربية، وتحوي خزائنه ذخائر قيمة من نذور ملوك وامراء وتجار المسلمين في عموم البقاع الإسلامية، كذلك تحوي احدى خزاناته (شعرة الرسول) ويقال أنها شعرة من لحية أو رأس النبي محمد (ص) يتبرك بها الزائرون ويظهرها ائمة الجامع يوم المولد النبوي.

اما ساعة الجامع . البغدادية الصنع . التي تضررت في الحرب الأخيرة، فقد تم اصلاح برجها ووضع ساعة أخرى بديلة، فيما تقوم وزارة الاوقاف باصلاح السياج الشمالي وبوابة الجسر اللذين تضررا أيضاً، على وفق النسق المعماري الذي شيد بموجبه عموم المشهد.

اصابع الغرباء

الاعظمية احد احياء بغداد التي تقاوم التغيير وبجهد البعض من شبابها ورجالها لإشاعة ثقافة العنف المسلح الذي يسقط ضحاياه العراقيون كل يوم لكن العديد من سكان الحي يرون ان الانصراف الى الاعمار واعادة بناء هياكل الدولة العراقية والمقاومة السلمية هي الاكثر جدوى واستحقاقاً، كما ان العملية السياسية الجارية الآن التي يقصد منها انهاء (الاوضاع الطارئة)، تلقى لدى الكثيرين نوعاً من القبول المشروط بعدم تغييب (السنة العرب)، ويتحدث كثيرون هنا عن اصابع الغرباء التي تعبث بأمن الحي الذي يرغب سكانه بشدة بهدوء الاوضاع واسباغ الطمأنينة على المنازل والاسواق ومع ذلك فهم لا ينكرون معارضتهم للحكومة الحالية، واعتراضهم على موعد الانتخابات.

كما يأخذ الكثيرون على (الحرس الوطني) وعناصره اسلوب اقتحام جامع الامام ابي حنيفة اثناء اداء المصلين (صلاة الجمعة) يوم الجمعة الاولى بعد العيد، واخذ المصلين فجأة وضربهم بقنابل الصوت التي ارعبت الجميع وبالاخص النسوة والاطفال، ومن ثم اطلاق الرصاص الحي، مما ادى الى مقتل ثلاثة مصلين واصابة آخرين بجراح ومنع سيارات الاسعاف التابعة لمستشفى النعمان وطوارئ الكرخ من حمل المصابين ومعالجتهم، فقد تم ايقاف ثماني سيارات اسعاف ومنع ملاكها الذي ضم طبيبين وممرضة وخمسة مسعفين من اسعاف المصابين كما يروي شهود عيان من سكان الحي.

ويرى البعض ان هذه الواقعة وضعت عدداً من سكان الاعظمية في موقع المؤيد لما حدث فجر اليوم التالي، حين هاجمت زمر (الزرقاوي) مركز شرطة الاعظمية وقتلت ثلاثة من افراد الشرطة، ويروي لـ (المدى) شاهد العيان (عمر الصائغ) الذي يقع محله قبالة مشهد الامام النعمان، كيفية اقتحام مركز الشرطة فيقول: فجر يوم السبت.. قبل العيد بيوم واحد تجمع عدد من الاشخاص الملثمين عند بوابة مشهد الامام النعمان بعد صلاة الفجر بقليل، وهم يحملون لافتة سوداء كتب عليها بالقلم الاصفر، في اعلاها (لا اله الا الله .. محمد رسول الله) ثم - قاعدة الجهاد- وبين هاتين الكلمتين رسمت صورة الشمس وفي الاسفل كتبت جملة (في بلاد الرافدين) ومن ثم انطلقوا الى مركز الشرطة حيث هاجموه بقذائف (الاربي جي) واطلاقات (البي كي سي) واحرقوا المركز بعد ان قتلوا ثلاثة من افراد الشرطة وجرحوا آخرين ثم انسحبوا، وحين قرأنا على الانترنيت بيان الزرقاوي الذي تبنى عملية مهاجمة مركز الشرطة لم نشك في ذلك، كما ان اللافتة التي حدثتكم عنها ظلت مرفوعة في مكانها اكثر من خمسة ايام حتى ازلناها بأنفسنا.

ومن الجدير ذكره ان موقع القصر الرئاسي الذي يحتله الجنود الامريكان لا يبعد كثيراً عن مركز شرطة الاعظمية، وبمعنى اوضح ان (الزرقاوي) كان يستهدف العراقيين لا الامريكان.

واقع الخدمات

اول ما يلفت الانتباه في شاطئ الاعظمية، هو غزو القصب والنباتات الطفيلية لضفاف هذا الشاطئ الجميل، واذا لم يكن لهذا الغزو تأثير مباشر على البيئة في المنطقة، فإن الانعكاس السيء على جمالية الشاطئ وانسياب مياهه، يولد قناعة جدية بضرورة تطهير ضفاف دجلة في عموم بغداد.

ومن سوق (النصة) الذي غزت شوارعه المياه الثقيلة الطافحة، حتى ساحة عنتر حيث مبنى المجلس البلدي للاعظمية، ثمة العديد من المحال والشوارع التي تفتقد الخدمات البلدية، فركام كارتونات السكائر ومخلفات اسواق الفواكه والخضر وقمامة البيوت تحتشد في الشارع العام، وبرغم ان الجميع هنا يدفعون (مكافآت) لسائقي شاحنات القمامة، والكناسين الذين يزورون الحي لماماً، الا ان حجم القمامة المتراكمة يؤشر مدى الاهمال الذي يعاني منه الحي.

وقد فشلت عدة محاولات لنا في زيارة المجلس البلدي ودائرة بلدية الاعظمية فهم يرفضون تحت هذه الذريعة او تلك لقاء الصحفيين.

ويشتكي السكان هنا من ان نظام (المقاولة) للنظافة العامة فشل تماماً في الحفاظ على نظافة الحي، كما ان مضخات شفط المياه الثقيلة ومولداتها متوقفة عن العمل بسبب تحويل هذه المولدات لإنتاج الطاقة الكهربائية وبيعها للسكان واصحاب المحال، وعلى ذكر الكهرباء فإن التيار الكهربائي مقطوع عن الاعظمية منذ اسبوع تقريباً كما يفيد السكان.

دار العلم .. والرياضة .. والموسيقى

والاعظمية دار علم معروفة، فمن مدارسها وكلياتها تخرج العديد من علماء الدين والعربية، ومن عوائلها المعروفة في هذا المجال عائلة المدرس، وعميدها اليوم الدكتور محروس المدرس وآل العبيدي ومنهم الدكتور رشيد العبيدي عميد جامعة الدراسات الاسلامية.

والاعظمية مصنع لأبطال الرياضة وفي مقدمتها المصارعة (فزورخانة) الاعظمية انتجت العديد من نجوم هذا اللون من الرياضة، فمن عوس الاعظمي وجيل عباس الديك حتى الدكتور امير اسماعيل حقي (اموري) وقاسم السيد ابطال هذه اللعبة محلياً ودولياً، وهناك آخرون غيرهم يواصلون اليوم تدريباتهم على حلبات نادي الاعظمية الرياضي، وللاعظمية دورها المشهود في الحفاظ على التراث الموسيقي العراقي، وبخاصة المقام العراقي، الذي واصل شيوخ العراق في الاعظمية قراءته حتى اليوم في الموالد وحلقات الذكر والمدائح النبوية، والساحة الفنية العراقية لا تنسى للاعظمية وليدها الراحل شعوبي ابراهيم، عازف الجوزة المعروف وخبير المقام العراقي الذي يتذكر العديد من طلاب المعاهد الموسيقية في بغداد محاضراته، وبخاصة في سنواته الاخيرة في معهد الدراسات النغمية، ويقوم مقامه الآن ولده البكر، الدكتور هيثم شعوبي، وهناك ايضاً قارئ المقام المعروف حسين الاعظمي الذي حاز شهرة عالمية واحيا عدة حفلات في عواصم اوربا والاميركتين، وكذلك قارئ المقام (الملا سعد) الذي اشتكى المطرب يوسف عمر من منافسته له في دقة الاداء وقوة الصوت.

جسر المحبة

الاعظمية والكاظمية حيان بغداديان تفصل بينهما دجلة وتقربهما الى بعض ارواح الائمة والاولياء المدفونين في الجانبين ومشاعر السكان المتضامنين، ويشدهما الى بعض جسر الائمة الذي يطلق عليه البعض هذه الايام اسم جسر المحبة، ويتذكر الشيوخ من الحيين يوم كادت الكاظمية تغرق اوائل الخمسينيات عندما فاضت دجلة، وكيف تنادي اهل الاعظمية لنجدة اخوتهم في الكاظمية وبنو سدتها معاً كتفاً الى كتف وهم يهزجون (اجه الروج عالسده وموسى بن جعفر رده) وهناك من يرفع اليوم لافتة كتب عليها - والاعظمية قد غدا ما نابها والكاظمية واحداً - ويوم تفجرت اجساد الزوار في عشرة عاشوراء في العام الماضي في الكاظمية، تنادى اهل الاعظمية فحملوا الجرحى الى مستشفى النعمان بسياراتهم وحملوا الماء والطعام للوافدين عبر الاعظمية الى جسر المحبة فالكاظمية، وعلقوا لافتات تدين ذلك العمل الاجرامي على جدران مشهد الامام (ابي حنيفة) وهنا تترد كثيراً عبارة تمنح القلب العراقي مساحة واسعة من الفرح والطمأنينة: ليس فينا من يفرق.. بيننا من جسور المحبة ما لا ينتهي.